



— دراسات في الفن :

الفن علامة الانسانية

للأستاذ عزيز أحمد فهمي



قال جاجاديز بوز العالم الهندي إن النبات يتالم ويئن وأثبت ذلك . وأغلب الظن أن جاجاديز بوز لو لم يكن شرقياً لكثر عليه أن ينسب الألم والتعبير عنه بالآنين إلى النبات ، ولا كتفى بقوله إنه تبدو فيه اهتزازات واضطرابات تشبه انفصالات الألم عند الإنسان . فهذا هو نهج التريين من العلماء الذين يتصدون

وجاهلاً بين حنايا . فؤاداً تخفق
بث القوى فيه دماً أحمر أو عظماً يثق

من عدم لعدم ومن عناء لرهق
ضج الثرى من رجم مشيد ومن نفق

سبحانه كم ألهم العقول جنونا وحمق
يشك ما يحيا وإن أشقى على الموت فرق
وكم تمالي حيت عنه قلوب من خلق
سبحانه قد وضحت آثاره فينا ودق !

رى بهذا الطفل في الأر ض ومن ثم رزق
رى به في موكب الدن يا مثلاً للقلق
يدبر عينيه ويستف سر عن سر الشفق
كأنه يصرخ : إن الو ت بالشمس علق !

التعباني برصف بشير

لدراسة الحياة : يؤثرون أن ينكروها أولاً ثم أن يبحثوا عنها ثانياً على خلاف ما يفعل الشرقيون الذين يشعرون بها أولاً ثم يتمرقونها ثانياً بادئين بأنفسهم غير منتهين إلى شيء ، لأنهم يؤمنون بالروح ويحبون بطبعهم أن ينسبوا إلى الأحياء جميعاً ولا يسمحون لأنفسهم أن يقولوا ماقاله بعض علماء الغرب من أن الحيوان نفسه مسلوب الروح وأن كل ما يبدو عليه من أمارات الوجدان والعاطفة ليس إلا ردود أفعال لاهتزازات عصبية مادية تمرى الحيوان في ظروف خاصة وتبعاً لمؤثرات خاصة، وهم يذهبون في نكرانهم هذا إلى أبعد الحدود حتى لينكروا هذا الفرح الذي يترى الكلب في استقبال صاحبه الغائب ، وهذا الحزن الذي يعتره لوفاة صاحبه الوفي والذي يحمله على الإضراب عن الطعام والشراب حتى يموت موتاً . يتكروا العاطفة الروحية على الحيوان ويقولون إنه لا يفرح للقاء صاحبه وإنما هو يضطرب لأن صراى صاحبه يثير في نفسه أو في أعصابه صور الطعام والنعم التي يفتقها عليه ، ثم يقفون أمام الكلب المنتحر من الحزن والأسى ، وقد طأطأ وارؤوسهم يفكرون في هذه القوة التي تقست الحيوان من أخص خصائص حيوانيته فأحمل الطعام والشراب والحياة نفسها . . . يخفضون الرؤوس أمام هذا الكلب طويلاً يبحثون في أذهانهم عن علة صياحه ؛ فإذا قال لهم قائل إن الحزن والأسى هما السبب انتفضوا وقالوا : لا . نحن لا نعرف . ولكننا نأبى أن يكون في الحيوان روح وحياة . أما بقية الناس فمنهم من لا يرون في فرح الكلب وحزنه إلا اضطرابات واهتزازات وانفعالات ورددود أفعال عصبية مادية لا روح فيها ولا حياة ، وهؤلاء يقولون أن يصدقوا هؤلاء العلماء لأنهم مثلهم ، وأن يثبتوا انهم أمام الكلب ينكروا عليه فرحه وحزنه إلى أن يقول

دينياً فهو أرق حياة وروحاً من النبات ، إذ أنه كلما ارتقى الكائن الحي ارتقت روحه وزاد إحساسها وزادت قدرتها على التعبير عن نفسها

أما الرفيع من الحيوان الذي تتضح مقدرته على التلاؤم مع ظروف الحياة الطارئة المتجددة ، فهذا يصعب تصوّره محروماً من العقل لأن فيه من مظاهر العقل .

صحيح أننا نرى في سلوك الحيوان ما يدل على الغباء أحياناً وما يدل على الفطنة وما يدل على الجهل ، ولكننا إذا تدبرنا هذه المواقف التي يظهر فيها غباء الحيوان وغفلته وجهله رأينا أكثرها مما تصطنعه ظروف غير طيبيية في الحياة . ولما كان الحيوان حيواناً وليس أستاذاً من أساتذة العلم الحديث فإنه المسكين يحار ويختبل أمام هذه الظروف الطارئة التي لم يسبق لأجداده الوقوع في مثلها وتجربتها ومعالجتها سبقاً متكرراً كان يمكن أن يهيئه للتغلب عليها ، وهو في هذا لا يزال يشبه أساتذة العلم الحديث حينما يقعون أمام المشكلات الحديثة المستقلة ... أليسوا هم أنفسهم يحارون ويختبلون ؟ ألا يصدر عنهم من الأعمال ما يدل على الغباء والفطنة والجهل كما تصدر عن الحيوان أعمال تدل على هدى ؟ إنهم هكذا من غير شك وإن في الحيوان عقلاً ولو تضاعل أمام عقل الإنسان وتواضع فإنه موجود لا يمكن إنكاره

فإذا اعترفنا للحيوان الراق بوجود العقل ، أو بوادر العقل فيه ، فإننا لا نملك إذن إلا أن نترف له إلى جانب هذا وجود الإحساس والعواطف فيه أيضاً ، وقد نستغنى عند هذا الحيوان الراق عن براهين جاجاديزبوز إذا كنا ممن يرون ويشمرون وشمون ويدركون الأشياء من غير أجهزة ومقاييس وموازين فإذا لم نكن من هؤلاء فقد ذل جاجاديزبوز العالم من الهند إن النبات يتألم ويئن ، وأثبت هذا إبتاناً يقنع عقل الغرب كما يرضى عقل الشرق ، وأصبح من المكابرة بعد هذا أن تنكر الأحاسيس والمواطف على الحيوان ، خصوصاً الحيوان الراق الذي يسلك في حياته سلوكاً يشبه سلوك الإنسان فيبحث عن طعامه بحثاً منطقياً ، ويتقي عدوه اتقاءً منطقياً ، ويبنى مسكنه بهندسة منظمة بل إنه يكثر أحياناً ، ويتخايب ويحتال ، مما يدل دلالة قاطعة على أنه حتى يقظ يحاول أن يلائم بين نفسه وبين ظروف الحياة الطارئة

لهم بلغة من اللغات الأوربية : إني فرح وإني حزين . ومن الناس من يحسون ويشمرون ويبادلون الحياة الشبهات والزفرات وأولئك آمنوا من هدى أنفسهم أن في الحيوان روحاً وحياة ، وهم يسارعون إلى جاجاديزبوز بصدقونه حين يقول : إن النبات يتألم ويتفعل بوجوده ، ويئن وينطلق بتعبير . ويخرجون من هذا بأن الحيوان أولى من النبات به .

ورضى الله عن جاجاديزبوز الذي استطاع أن يثبت رأيه إبتاناً علمياً استخدم فيه آلات المامل وأحاضها وأملاحها فلم يعد هناك مجال لإنكار ما أثبت ، بل لقد عد سنيمة هذا من كرامات البشرية الحديثة فنحه الغرب جائزة نوبل التي يتمزجها على الشرقيين أثبت الشرق إذن أن النبات يتألم وأنه يئن من الألم ، وقد يكون الألم علامة الروح الوحيدة في النبات وقد يكون معه غيرها ولكنه على أي حال يكفي للتدليل على الروح ، فهو يستطيع أن يشملها وهو الذي يترع بها إلى الخلاص ، وهو - أخيراً - حسبنا من علامات الروح في النبات

فإذا ارتفعنا من النبات إلى الحيوان في سلسلة التطور والارتقاء الحيويين رأينا الحيوان يمتاز على النبات في الظاهر بالحركة . ورأينا الحيوان في حركته واحداً من اثنين : إما خسيماً يتحرك في حياته حركات متشابهة متكررة لا تعديل فيها ولا تجديد ولا محاولة تدل على قدرة التلاؤم مع الحياة . وإما رقيقاً يتحرك في حياته حركات مختلفة يطرأ عليها التمديل كلما تغيرت الأحوال ، ويطرأ عليها التجديد كلما استدعت الظروف التجديد ، وتتجور ويتزايد وضوح المحاولة التي تدل بها على قدرة التلاؤم مع الحياة

أما خسيس الحيوان فقد يسهل تصوّره محروماً من العقل إذا اعتبرنا أن العقل هو القوة التي تمكن الكائن الحي من الملازمة بين نفسه وبين ظروف الحياة الطارئة المتجددة . ولكن هذا إذا سهل علينا تصور . فإنه يتعذر علينا (بعد الذي أثبتته جاجاديزبوز) أن نتصوره خالياً من القوة الروحية التي يثور بها في نفسه وجدان الألم على الأقل . فإذا كنا ممن يؤمنون بالتطور والارتقاء الروحيين إلى جانب التطور والارتقاء البدنيين ، فإننا من غير شك نتوقع أن يكون في أدنى الحيوان من علامات الروح شيء إلى جانب الألم ، لأنه قد ثبت أن النبات يتألم ، والحيوان مهما كان

الذي يحاوله الحيوان في المحاصر يتضح عند الإنسان ويفرج حتى ليسخر له الإنسان الأرقى حواسه جميعاً يجمع أصوله بها ويطلقه فيها ، ثم يصدره معبراً عن ذاته كما يفعل الليل والكروان ولكن في صور أكثر من صورهما ، ثم معبراً بعد ذلك عن غيره ، وهو ملا يفعله أحد من الحيوان ، لا الليل ولا الكروان .

ونحن إذا حاولنا أن نجد شيئاً ظاهراً يميز الإنسان مما عدها من المخلوقات في هذه الظاهرة لم نجد شيئاً . ذلك أنه إذا حسبنا النطق يميز الإنسان فالبيغاء ناطقة ، وإذا حسبنا الحياة الاجتماعية تميز الإنسان فالذئب والقرد والرعل حيوانات اجتماعية ، وإذا حسبنا الإحساس يميز الإنسان فقد رأينا الحيوان بل والنبات يحسان ، وإذا حسبنا العقل فالحيوان يعقل وإن أنكر العلماء ، وهكذا فإننا نجد في التفريق بين الحيوان والإنسان إلا بائنتين . هذه الظاهرة التي سجلناها ، وظاهرة أخرى هي الدين . . . على أنه يمكن بسهولة تامة أن تصور النبات والحيوان والجماد معهما متدينين جميعاً إذا اعتبرنا أن الدين هو الإسلام وهو نهج النظم الطبيعية التي تؤدي إلى السلامة ، وإذا لحظنا أن الأديان لم تلتزم الإنسان إلا بعد أن انحرف عن نهج النظم الطبيعية التي كان يجب عليه أن يتبعها لتسلم حياته من الأضرار وأمراض البدن والروح ، لم يبق أمامنا من شيء يميز الإنسان على سائر الكائنات غير هذه الظاهرة التي ذكرناها

فأما هذه الظاهرة ؟

إنها الفن !

وهذه الظاهرة تسلك حين تسرى في الإنسانية مسلك كل ظاهرة من ظواهر التطور والارتقاء . وقد رأينا ظواهر التطور والارتقاء تبدأ في الدنيا من الخلائق على صورة يسيرة غامضة ، ثم تزدهر وتتضح وتتضح حتى تتميز تميزاً تاماً واضحاً ملموساً فيكون هذا التميز طابعاً لهذا الفريق من الخلائق ويكون هذا الفريق أنضجها وأرقاها في هذه الناحية

وكذلك الفن . نواته موجودة في البشر جميعاً لأنهم الحلقة الحيوية التي اختصتها الطبيعة به وهيئاتها له . والدليل على ذلك أن الناس جميعاً يستجيبون للفن أو هم على الأقل يطربون للموسيقى . وما كانوا يملكون إلا هذا ما دام في الحيوان ما يعني كالكروان

فينجح أحياناً ، ويفشل أحياناً ، ولكنه لا يكف عن المحاولة مادام حياً

فإذا تركنا حياة النبات والحيوان وقد ترامت لنا الروح فيها وعرجنا على حياة الإنسان رأيناها أنضح من حياتيهما في نواحيها الثلاث : النبات يحس ويعبر عن إحساسه ، والحيوان يحس ويعقل ويعبر عن إحساسه وعقله ، والإنسان يحس ويعقل ويعبر عن إحساسه وعقله

فهل يزيد الإنسان على الحيوان في شيء . . . ؟

لا جاديزبوز ولا حتى أما نرضى بهذا ! ولا يرضى به شرقي قد كان من الممكن أن يقال هذا لو لم تقل إن الإنسان حلقة جديدة هي أرقى الحلقات في سلسلة التطور والارتقاء في الخلائق . وما دمنا قد قلنا هذا ، وما دمنا رأينا التطور والارتقاء للماديين يلزمهما تطور وارتقاء روحاني ، فلا بد أن يكون في الإنسان ميزة روحية ترق به على الحيوان إلى جاب رقيه البدني المادي .

فأما هذه الميزة الروحية ؟

لنعد مرة أخرى إلى النبات والحيوان نتبع فيهما منطق التطور والارتقاء لنهتدي به فيما نريد أن نعرفه من علامة الإنسانية التي لو فقدتها الإنسان لم يكون غير حيوان ، وإن نطق ! فليس النطق على أشرف صورته إلا محاولة عقلية . . . أما الصورة الأخرى فهي التي نعرفها من البيغاء التي أنطقها الله لأمر ما ، والتي لعله سبحانه أراد حين أنطقها أن يدرك المتصورون شيئاً من تشابه الخلائق ، وبريقاً من التوحد يسطع منها جميعاً ، وإن تفاعلت وتبدلت وتطورت وارتقت . . .

النبات يرتقي حتى يشابه الحيوان في حلقة الإسفنج ، والحيوان يرتقي حتى يشابه الإنسان في القرد أو ما هو أرق خلقاً من القرد وهو الحلقة المفقودة التي ذكرها العلماء . وقد رأينا الإحساس يبدأ في الحياة أولاً ومعها تعبير ضامت عنه ، ثم نرى العقل ينشأ في الحيوانات المحتالة ومعها تعبير غامض عنه لم يثبت بمد للطم ، ولكننا قبل أن نترك حلقة الحيوان إلى حلقة الإنسان نرى الحيوان يعبر عن إحساسه تعبيراً فيه تدليل على ذاته ، وهو أشبه التعبير بالغماء البشري . فإذا تركنا حلقة الحيوان ومضينا إلى ما بعدها فقد صلبة التطور والارتقاء وهي حلقة الإنسان رأينا هذا التعبير

كتاب الدين والعقل أو برهان القرآن

تأليف أوستاز أمير حافظ هرايز

هو في استنطاق براهين عقائد الإسلام من القرآن الكريم على وجه الحصر والاستيعاب مثبتة بأحدث النظريات العلمية .
يحتوى على مقدمة وسبعة أجزاء هي : (البرهان الناطع في وجود الصانع) ، (الرسالة وبعثة الأنبياء عليهم السلام) ، (البعث والمعاد) ، (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، (القرآن كلام الله) ، (إن الدين عند الله الإسلام) ، (ميزان الأديان) . وهو في أربعمائه فصل مصدره بدلائلها في القرآن على أسلوب جديد لعلم الكلام وقد اطلع عليه كثير من كبار العلماء فشهدوا بأنه وحيد في بابها لم ينسج على منواله كتاب من قبل وحسبنا أن نقتطف منها هذه الكلمات :

«... قرأت المؤلف النفس السسى (الدين والعقل أو برهان القرآن) فأنبته مؤلفاً قيساً فانما وأسأل الله أن ينفع به الحق أجمعين »
الاحمدى الظواهرى شيخ الأزهر السابق
«... كتاب جمع بين المقول والمقول والم طريقة للتقدمين والتأخرين فاجدره بان يسمى (الدين والعقل) فقد أبان أنها متآخيان ، ولعمارة المارين داعيان » يوسف الدجوى عضو جماعة كبار العلماء
«... وجدته من خير ما يخرج عالم في هذا الصنف أسلوبه وموضوعه وبحونه » محمد زاهد الكوثرى

وكيل المشيخة الاسلامية بدار الخلافة سابقاً
«... يتمتع الجزء بأدلة من القرآن العظيم ترفيض والموضوع الذى هو بصدده مستدلاً بأقوال أساطين العلم من المسلمين والأوربيين مطبقاً آيات القرآن على أحدث نظريات العلوم . وبذلك قد سد هذا الكتاب النفس فراغاً في الناحية العلمية الدينية كان يجب أن يد قبل اليوم بفرون » عبد الوهاب التجار

«... وجدتك في هذا الكتاب تتحون نحو آيات القرآن في آيات العقائد الدينية وتعمل في بحثك على ما ظهر من الكشف العلمى الطبيعى والروحى في الآفاق والأهس وهم الطريقة للمثل الذى يجب على الباحثين اتباعها في زماننا هذا وما بعده » طنطاوى جوهرى

«... جاء هذا التأليف جامعاً للأدلة العقلية على صحة الصريفة المحمدية جماعاً وفق فيه المؤلف إلى الغاية ، وهنئ كل دليل بآية » شكيب أرسلان
جلى فيه سمو الأصول الاسلامية وتعاليم الكتاب الكريم ودل على أنها النابعة التى ليس وراءها مطمح فكان فيما كتب موقفاً كل التوفيق محمد فريد وجدى

والكتاب في ثلاثة مجلدات يطبع الآن بمطبعة الرسالة أحسن طبع وعلى أجود ورق . وقية الاشتراك في المجلد الواحد قبل الطبع ١٠ فروس صاغ وفي المجلدات الثلاثة ٢٠ قرشا . ويكون اثنين بعد الطبع ١٥ قرشا من المجلد ٥ ٤ قرشا عن الكتاب كله . والاشتركاات ترسل باسم مجلة الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤ - عابدين القاهرة

والبلبل ، وما دام فيه ما يستجيب للصغير « وهو ضرب من الموسيقى » كالتعبان . وليس غناء الكروان والبلبل واستجابة التعبان وطربه للصغير إلا بشيراً بالفن أو بانغامه على الأذن بشرت به الحياة الخلاق في الحيوان ، وحقته تحقيقاً تاماً في الإنسان ؛ غير أن الناس ليسوا سواء في تكوينهم الفنى ، وليس في هذا عجب لأن الناس ليسوا سواء في شيء من الأشياء ، ولأن طبيعة الحياة أن تتشابه في العموميات ، وأن تختلف في التفصيلات ليثبت لذوى الأبصار أن هذه الخلاق لا تصنع في منسج فيه آلات وفيه قوالب وإنما تخرجها إرادة فنان يأبى أن يتكرر حين يتوحد سبحانه من فنان ١

فإذا راق لنا أن تؤمن بهذا وأن نعتبر الفن علامة الإنسانية التى تسمو بها على الحيوانية والتى لا يمكن الإنسان أن يكون إنساناً إلا إذا اتصف بها ... إذا آمننا بهذا لزم أن يكون أقرب الناس من الفن أنضجهم إنسانية . ولزم أيضاً أن تتوقع لهذه العلامة الإنسانية أن يتزايد وضوحها وتمكنها حتى تشمل البشر جميعاً ، وعندئذ تبتدى " بشار الميزة الجديدة التى يريد الله أن يطبع بها الحلقة المقبلة من حلقات التطور في الخلاق . . . ومن يدري أى شيء سيكون هذا الطابع ، وأى ميزة ستكون هذه الميزة ؟! لعلها ميزة العقل الذى يطالبنا به الله لا عقل العلم الحديث

فإذا كان الأمر كذلك كان ما يسعد الفن هو ما يسعد البشرية ، وكانت كل محاولة يراد بها التقليل من شأن الفن محاولة مجرمة تعرقل التطور البشرى

فهل تهج الإنسانية في حياتها الحالية نهجاً فنياً يسعدها ويرقى بها ؟ أو هى قد انحرفت عن طريق الفن إلى طريق آخر لا يمكن إلا أن يقيد بها مهما كان صالحاً ومهما كان فيه خير لنواح بشرية غير ناحية الحس الروحى ؟

إن الإنسانية قد انحرفت إلى هذه الطريق منذ أمنت بالحضارة والعلم اللذين يحضنان المادة

وإنه من الخير لها أن تفتيق وأن تعود إلى حياة الحس الروحى فينتش فيها الفن وتنتعش فيها الروح وترقى ، وهذه سنة الله لو أردنا أن نتبع سنته

عبد محمد نسيمى